قراءة في صفحة من صفحات الفن الغنائي الشعبي اليمني

قال الحسينـــــي

لحج بوابة عدن ، وصفها الأمير أحمد القمندان شاعر اليمن المتوفى سنة (1943م) بـــ (لحج الخضيرة) . ويقول انـــه العلامـــة المؤرخ محمد بن أحمد الحجري في كتابه (مجموع بلدان اليمن وقبائلها) حول سـبب تسـميتها بـــ (لحج) إنه يعود الى أسـم ملك من ملوك سـبأ هو لحج بن وائل بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسـع بن حمير بن سبأ ، وفي رواية أخرى سميت لحج على أسم مسلم بن محمد اللحجي وهو من علماء الزيدية . ووصفها (بامخرمة) المتوفى سـنة (540هـ / 947م) بأنها تحتوي على قرى ، ومزارع ، ونخيل. وذكرها مؤلف مجهول بأن لحج فيحاء اليمن من كثرة بساتينها ، وغزارة مياهها العذبة ، وخصوبة أرضها .

في الهواء

والحقيقة أن الرحالة الأوربيين الذين زاروا وشاهدوا لحج في الثلاثينيات أمثال الرحـال الألماني هانز هولفريتز وصفوا عاصمة السـلطنة اللحجية الحوطة بأنها أكثر من روعة ، وأنها مدينة تسـتحق الإعجاب لجمال بيوتها الناصعة البيضاء ، ومسـاجدها الأصيلة المصبوغة بالطراز الهندي البديع . ويرسم لنا هولفريتز لوحة بديعة الشكل عن عاصمة العبادل ، عندما أقترب من بوابتها ، فقال : " وفجأة أرتفع أمامنا في الأفق ، منظر رائع ، وكأن مسة سحرية قد أصابته ، فبعثته إلى الحياة ، أنها قصور ذات أبراج ، تشرق بيضاء لامعة ، كالمرمر وقد ارتفعت سـقوفها المدورة ، وشرفاتها الرقيقة . وكان الشـيء المدهش ، أن جميع هـذه المناظر بدت عائمة في الهـواء ، وكأنها مرسومة على نقطة انحدار السماء الزرقاء نحو الأفق " . ويمضي في حديثه ، قائـلاً : " وقد ضمت أرق الألـوان وأكثرها وداعة . وعندمـا اقتربنا ، أخذنا نبصر الخطوط العريضة للمدينة ببيوتها السـمراء المربعة ، وقد تشابكت مع بعضها ، وثبتت أقدامها في الأرض . وتبينا سبب ما أصابنا من خداع النظر من بعيد ، فالبيـوت كلها مؤلفة من أكثر من طبقة واحدة ، وجميع طبقاتها العُليا مصبوغة باللون الأبيض أما الطبقات السفلية فلونها من لون التراب ، وهذا الذي جعلها تبدو لنا من بعيد وكأنها معلقة في الفضاء " .

لحج الخضيرة

ويصف الرحال الألماني كيف أن اللون الأخضر الجميل قد صبغ ريف لحج ، قائلا : " وتغيّر منظر الأرض أيضا بصورة مفاجئة ، وأخذ الوادي الجاف الذي كنا نسير بجواره منذ مدة طويلة ، يبدو فيه الماء شيئاً فشيئاً الآن ، وتسيل هـذه المياه نحـو الحقول التي تنتشـر الخضرة فيها عبر عـدد من القنوات والمجـاري " . ويضيف ، قائلاً : " وكانت هامات أشـجار النخيل النحيلة ، وقد ثقلت بالأثمار المعلقة فيها ، تنحي فوقنا ، بينما اكتظت الدروب ، بأبناء البلدة ، يعودون إلى بيوتهم من أعمالهم عند مغيب الشمس . ورأيت أطفالاً سمر ًا من العرب تعرّت صدورهم ، يسوقون أمامهم الأبقار إلى زرائبها ، وحيّانا هؤلاء الغلمان تحية ودية ، بينما نظرت إلينا النسـوة ، وكن يرتدين أوشحة زرقاء ، نظرات فيه الكثير من الخفر والحياء . ورأينا أمامنا بوابة واسعة من الطين سرعان ما ابتلعتنا ، فقد وصلنا إلى لحج " .

لحج و الحياة الاجتماعية

والحقيقة لقد وصـف الرحال الألماني هولفريتز الحيـاة الاجتماعية في لحج في فترة الثلاثينيات وصفاً دقيقاً ، ويعتبر وصفه هذا وثيقة مهمة عما كانـت عليه لحج في تلك الفترة التاريخية في عهد حكم العبادل سـلاطين لحج وعـدن . ولقد لفت نظرنا أن النسـاء اللحجيات فـي الريف مثلهن مثل نسـاء ريف اليمن يذهبن إلى العمل فـي الحقول . والملاحـظ أن لحج في تلك الفتـرة التاريخية ، كانت تموج بالحياة والنشـاط الكبيرين ودليل ذلك أن دروب لحج كانت مكتظة ومليئة بالناس والحركة الكبيرين ــ على حسب قول هولفريتز ــ . وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الأمن والاستقرار الكبيرين التي شهدتهما لحج في ظلال الأغلب والأعم من سلاطينها . ولقد ذكر الأمير أحمد فضل القمندان في سـنة 1940م ، أنّ عدد سكان الحوطة بلغ عشـرة آلاف نفس ، وهذا دليل واضح على مدى ما كانت لحج تتمتع به من استقرار وأمن وازدهار وخصوصا في الحياة السياسية والاقتصادية في ظلال حكم العبادل سلاطين لحج وعدن حينذاك " .

الرعارع والحوطة

ويقول ألأمير أحمد فضل العبدلي المشهور بـ (القمندان) في كتابه (هديـة الزمن) عـن العاصمة القديمة للحـج : " وعاصمة لحج في وقتنا الحاضـر ــ يتحدث في فتـرة الأربعينيات ــ مدينة الحوطـة ، وكان الرعارع وميبه عاصمتـي مخلاف لحج في أيام الزريعيين (الذين كانوا عمالاً للدولة الصليحية في عدن ولحج ثم اسـتقلوا بالحكم عنهـا ، وحكموا عدن قرابة أكثر من خمسين سـنة) ثم الأتراك (ويبدو أنه يقصد بحكم الأتراك للحج في الفتح الأول لهم لليمن سـنة 1538م) . ويذكر أن أول من أتخذ الحوطة عاصمة للحج بدلاً من العاصمة القديمة الرعارع هم عمال الإمام المتوكل ، والإمام المنصور . وعندما أعلن الشـيخ فضل بن علي العبدلي الانسـلاخ عن أئمة اليمن سـنة (1145هـ / 1732م) أقرها عاصمة لملكه. ومنذ ذلك التاريخ الذي ذكرناه . واسـتمرت السـلطنة العبدلية كدولة مستقلة بذاتها حتى " ... شـهر أكتوبر 1959م ، وافق السلطان الجديد (فضل بن علي بن أحمد) على ضم لحج كولاية إلى الإتحـاد الفيدرالي . وأصبح وزير ًا للدفاع في حكومة الإتحاد ، وانتهت لحج بذلك كسلطنة قائمة بذاتها " .

الأجواء الفنية

ونرى أنه من الأهمية بمكان ، أنّ نتعرف على أهم السمات التي تميزت بها (لحج الخضيرة) وهي الغناء والموسيقى اللحجية التي كانت ومازالت تسحر العقول والقلوب في وقت واحد بسـبب كلماتها النابعـة من بيئتها الأصيلة الخصبـة من ناحية وأنغامها البديعة التي تدغـدغ خوالج النفس من ناحية ثانية ومواال الريف اللحجـي الحزين الذي يصدع بالحب العذري الجميل من ناحيـة أخـرى . والحقيقة أن الغنـاء اللحجي ما كان يزدهر فـي لحج وعدن ويتخطى حدوهما إلى آفاق واسعة من اليمن لولا أن الأجواء الفنية الرائعة التي كانت سـائدة في فترة حكم الكثير من سلاطين لحج بل أن بعضاً من الأمراء كان يشارك في الطرب والغناء والعزف على آلة الموسيقى . وهذا ما أكده الأستاذ خالد صوري في كتابه القيم الذي حمل عنوان (الفنان الرائد ، خليل محمد خليل) عندما صحب الأخ الأكبر طه لخليل محمد خليل إلى قصر السلطان بلحج ، وشاهد بنفسه كيف كان الأمير فضل عبد الكريم يحتضن العود بهيام وانسـجام كبيرين . وأن ذلك المشهد الفريد مازال منحوتاً في وجدانه بعد مرور السـنون الطويلة . ولا نذهب بعيداإذا قلنا أنّ الأمير أحمد فضل العبدلي المشهور بـــ (القمندان) كان رائد النهضة الثقافية بصورة عامة والغناء الشعبي من ناحية أخرى .

سألت العين

ومن الروافد الفنية الكبيرة التـي أمدت الغناء العدني ، ووضعت بصمات واضحة ومضيئـة أنغامه هي الأغنية اللحجية التي ازدهرت ازدهار ًا كبير ًا وذلك بفضل شـعراء لحج الكبار على سـبيل المثال الأمير أحمد القومندان أمير الشعر ولحن صاحب الكلمات الرقيقة التي تهز المشاعر الإنسانية هز ًا عميقاً . وفي هذا الصدد ، يقول الأستاذ الفنان الكبير خالد صوري : " بيد أن آخر أشد غرآما (يقصد بها أفلام أغاني السينما المصرية و الهندية) لم يلبث أن تدفق من نبع محلي ولم يكن ذلك إلا سـيل الأغنية اللحجية ، فقد ظهر في لحج شاعر كبير من رجال الشعر الحميني هو الأمير أحمد فضل العبدلي الملقب بالقمندان , وقد توفي عام 1943م وكان شقيق سلطان لحج وابتدع

محمد زكريا

القمندان

عدد ًا كبير ًا من الأغاني اللهجيـة لـم تلبـث أن اكتسـحت الأوسـاط المهتمة بالموسيقى". ومـن الشـعراء الكبار الذيـن نمـو وترعرعوا علـى أرض لحـج الخضيرة الشـاعر عبد اللّه هادي سُبيت الذي أخـرج لنـا الكثيـر من الأغانـي اللحجية التي تنسـاب منهـا عذوبـة وجمـال علـى سـبيل المثـال أغنية ((سـألت العيـن)) والـذي قـام بتلحينهـا أيضـا والتي مازالـت تحتفـظ حتى هذه السـاعة برونقها وروائها عندما تترامى إلى أسماعنا.

الفل والورد والعنبر والكاذي

والجدير بالذكر ، أن لحج كان يوجد بها سـينما يعـود تاريخها تقريباً إلى أواخر فترة الأربعينيات ومطلع الخمسـينيات وكان صاحب تلك السينما والد الفنان خليل محمد خليل . كل تلك العوامل التي ذكرناها قبل قليل تعطينا فكرة واضحة عن التربة الفنية الخصبة التي كانت متواجدة في لحج الخضيرة التي أنبتت الغنـاء اللحجي الجميل الذي إذا سـمعته من أول وهلة شـعرت تلقائيًا أنه قادم من أعماق لحج الأصيلة ، فالغناء اللحجي له ملامحه الخاصة تعرفها من خلال الكلمات ، والألحان ، ونبرات الصوت اللحجي الرخيم كأنك تشم رائحة الفل ، والياسمين ، والورد ، والعنبر القادمة من لحج الفيحاء .

" نجيم الصباح "

وينقل لنا الأديب والقاص حسـين سالم باصديق مقتطفات عن الأغنية الشعبية اللحجية في الزواج من ديوان (المصدر المفيد في غناء لحج الجديد) للقمندان ، فيقول : " وأكثر ما يغنى في مثل هذه المناسـبات أغنية (نجيم الصباح) التي تقول: ــ

نجيم الصباح ، إيش جلسك بعد ما قمنا
نجيم الصباح ، سامر على الورد والحنا
نجيم الصباح ، سامر على الفن والمعنا

إلى أن يقول :

نجيم الصباح ، نحنا معاهم وهم معنا
نجيم الصباح ، طاب السمر كلنا طبنا
نجيم الصباح ، إيش جلسك بعد ما قمنا

أغاني الدان اللحجية

والحقيقة أن أغاني الداني أو (الموال) اشتهرت بها لحج على نطاق واسع في اليمن ، ومن الأسباب الرئيسة في شهرة ذلك النوع من الغناء يعود إلى أن لحج ترقد في حضن الريف الأخضر الهادئ الإيقاع ، البعيد عن الضوضاء ، والضجيج و بعد أن يمدّ الليل سـتاره , يجلس المزارعين والفلاحين على شكل دائرة تحت قبة السماء الصافية المطرزة بالنجوم الساطعة ، فينشدون أغان الدان الجميلة التي تعبر عما يجول في خواطرهم ومشاعرهم ، وكان من بينهم من يعزف آلة موسيقية قديمة معروفة في لحج وهي (القنبوس وهي آلة وترية أشـبه بالعود (المصري). وكان أشـهر من يعزف عليها هو الشاعر الشعبي الغنائي فضل ماطر الذي عاصر الشاعر الكبير الأمير أحمد فضل القمندان ولكن الأخير جلب معه آلة العود من الخارج . ونظرا لأهمية هذا الموضوع الذي ذكره الأستاذ حسين سالم باصديق بإسهاب وعمق حول الدان أو الموال اللحجـي ، فيقول: " وفي لحج الخضيرة حدثني أحد شـيوخ الأدب والفن ، الأسـتاذ فضـل عوض عوزر ، أن أغنية الدان هناك منتشـرة ، وأنّ الشـاعر الشـعبي الغنائي فضل ماطر عُرف بهـا , وكان يعزف على (القنبوس) ، ولحق عهده الفنان القومندان الذي طور القنبوس وأدخل العود الذي استجلبه من الخارج ، وطور كثيراً من القصيدة الغنائية أو كما سماها الشاعر الغنائي اليمني والمطرب عبد اللّه هادي سُبيت بـــ (كرمة الألحان) ومن كرمة الألحان كانت أغنية الدان الشعبية " . ويضيف حسين باصديق ، فيقول : " ويجدر أن نشير إلى ما قاله القومندان مخاطباً صاحبه الفنان هادي سعد النوبي وهو مطرب قديم اشتهر بأغاني الدان ، فقال :

«غن يا هادي نشيد أهل الوطن غن صوت الدان ».

سلامي على الولهان

ويعقب حسين سالم باصديق حول سبب تسمية القمندان للموال أو الدان اللحجي ، نشيد الوطن ، فيقول : " فالدان في لحج الخضيرة ، كان موالاً شعبياً محلياً أعتبره القمندان لاتساع شعبيته هناك ، نشيداً لأهل الوطن ، وردد معه شـعراء آخرون أغاني الدان ومنهم الشاعر الموهوب عبد اللّه هادي سُبيت الذي قال في قصيدته الغنائية التالية : ــ إلاّ رد صوت الدان

سلامي على من دام وافي لأحبابـــــه سلامي على الولهان
سلامي على من هام والحب وصى بـه على نغمة الألحـــان
سلامي على الأحلام من طرفك النـابه وفي حلمي اليقظـان

الفن الشعبي الغنائي

والحقيقة لقد كان للأمير أحمد فضل القومندان دور رائد في تطوير التراث الشعبي الغنائي اللحجي بصورة عامة أو بمعنى آخر أنه حمل لواء التجديد في الأغنية ولكن مـع الأحتفاظ بهوية التراث اللحجي . وهذا ما أكده الكثير من النقاد الفنيين ، فقالوا بما معناه : " ومن الأسـباب الرئيسة التي جعلت الشاعر الكبير القمندان ينفرد عن غيره من الشعراء في عصره هو أنه حافظ على أصالة التراث الغنائي الشعبي وأضاف إليه ملامح عصرية تناسب إيقاع الحياة الجديدة التي عاشها حينذاك أو بمعنى آخر مزج بين الأصالة والحداثة . وهذا ما أكده حسين سالم باصديق ، إذ يقول : " وقد طور القومندان ذلك التراث الشعبي وأدخل عليه ألوانا حديثة من الشعر الشعبي الغنائي ، وعلى الرغم من ذلك بقيت نكهة المتوارث القديم محبوبة وبقي الناس يتروحونها (يستروحونها) " . ويذكر باصديق أن الفن الغنائي الشعبي تطور على يد عدد من الشعراء الشعبيين الغنائيين بعد رحيل القمندان .

" كُنا سوى في الحسيني "

ونـورد ما ذكره حسـين باصديق في هـذا الصدد ، فيقول : " اسـتمرت عملية تطوير الفن الغنائي الشعبي بعد القومندان في لحج ، وظهر شعراء شعبيون غنائيون آخرون أبرزوا دورهم في قدرتهم على تقديم المزيد من أغنية الدان ، وغناها المغنون ، ورددها الناس ولا يزالون ، ومن ذلك ما قاله مهدي علي حمدون : ــ

حاشا فؤادي بسبب خِل قد حبه وعاش مفتون به في البُعد وإلاّ بقربه

وقال في قصيدة الدان بعنوان : ((يا لهف قلبي)) : ــ

كثـر الـهـوى والـنـوى والـبـعـد أضـنـاهـا
مـنـوه يـسـمـح لـهـا
وبـايـخـفـف بـكـاهـا

ويشـير حسـين باصديق إلى كلمات الشـاعر الرقيق صالـح نصيب في قصيدته الغنائية تحت عنوان ((يا طير)) ، جاء فيها : "

شمسـان كلم غزالك بـس يترفـــق ما فائدة بالحنـق واحنا لنا ماض
أسـبق كنا سوى في الحُسيني جنب ذاك الشق أنا وأنت سبق نتبادل الود
بالحـــق وفي الحقيقة أن الغناء الشـعبي اللحجي وعلى وجه التحديد غناء الدان أو الموال تنثال وتنساب منه اللوعة ، والحزن ، والأسى ، والآهات العميقة والدفينة من صدر العاشق الولهان ولذلك فهي تهز أحاسيسنا هزاً عنيفا ، وتكاد أنياط قلوبنـا تتمزق من أجله . وهذا ما أكده الأديب والقاص حسـين سـالم باصديق ، قائلاً : " إنّ أغاني الدان بالفعل مؤثرة وخصوصاً وأنت تسمعها من صوت المُغني نفسـه صاحب القضية وهو ينفث أناته ، وآهاته " .

لحج وأعلام الفن

والحقيقـة لقد زخـرت لحج الخضيـرة بشـعراء الغناء الشـعبي الكبار ، وبأصوات جميلة جسدت كلماتهم البديعة التي خرجت من القلب إلى القلب ، وكان لهـا دور إيجابـيٌ في الغنـاء اللحجي والذي كان لـه تأثير و بصماته الواضحة علـى الأغنية في عدن أو الغناء العدني ــ كما ذكرنا في السـابق ــ . ولكن مع الأسف الشديد ، لم نعد نسمع عن هؤلاء الرواد سوآء الشعراء الشعبيين أو المغنيين التي صدحت أصواتهم الشجية المغلفة بالون اللحجي الأصيل الذي تعرفه من أول لحظة من الكلمات ، ونبرات الصوت . وعلى أيّة حال ، تمكن بمجهود فردي الأسـتاذ لطفي حسـين منيعم يشكر عليه . أنّ

لحج

يجمع في كتاب بعنوان ((الغناء اللحجي)) أعلام بعض الشـعراء الغنائيين الشـعبيين وأيضاً المطربيـن الذين كانوا كواكب مضيئة في سـماء الغناء اللحجـي والذين مازالوا يحتلون مكانة كبيرة فـي قلوب الناس بالرغم من غيابهم عن مسرح الحياة .

تعرفت على الشـاعر الرقيق والأنيق بكلماته عن كثب في منتصف سنة 1984م ، عندما كان يزور الأسـتاذ الصحفي الكبير الراحل شـكيب عوض رئيس القسـم الثقافي في " 14 أكتوبر " ــ رحمهمـا اللّه ــ . ولفت نظري الخطوط الغائرة التي حفرها الزمان على وجهه الطيب . وكان الشاعر حمود نعمان قبل أن يسلم قصيدته الغنائية لنشرها في الصحيفة ، كان يقرأها أو قل إن شـئت يترنم بكلماتها العذبة النابعة من القلب التي أثقلته الأيام والسنون الطويلة . وأتذكر في يوم من الأيام ، أن الشاعر الكبير حمود نعمان كتـب قصيدة ــ ولكنني مع الأسـف ــ ليسـت حاضرة فـي ذهني في هذه الساعة ، وكانت آخر قصائده قبل رحيله عن مسرح الحياة المكتظة بالقلق ، والأرق ، والعذابات . فقرأ قصيدته تلك بصوت هادئ كأنه قادم من أعماق المجهـول ، وقد اختلط صوته الواهن الضعيـف بالعبرات ، وكأنه يودع آخر أعماله الفنية في حياتـه أو آخر أبنائه ، وأقصد آخر قصائده . وبعدها بأيام قليلة ، سمعنا برحيله . وكيفما كان الأمر ، فإن والحقيقة أن الشاعر الكبير والمبدع حمود نعمان كانت له أيادي بيضاء على الحياة الثقافية اليمنية عامة من ناحية وعلى الأغنية الشعبية اللحجية بصورة خاصة من ناحية أخرى .

عبد اللّه هادي سُبيت

والحقيقة أن تلك المشـاهد السياسـية أثرت على شـاعرنا الكبير حمود نعمان الذي كان في شرخ الشباب متحمسا ومتعطشاً للثورة ضد البريطانيين وسياستهم المتغطرسة فشـارك في إصدار الكثير من النشرات السياسية التي تندد بهـم . وكان شـاعرنا حمود نعمـان إلى جانب قصائـده الثورية الوطنية يكتب القصائد التي تحمل في ثناياها روح الدعابة ، وخفة الدم . فقد بعث بقصيدة إلى الشـاعر الكبير عبد للّه هادي سُبيت الذي كان سكرتير ًا للسلطان علي عبد الكريم حينذاك ، فيقول فيها :

يا صباح الخير يا أستاذنا بالصراحة كيه باللّه قلنا
قد وصلنا اليوم ولا عادنا كلنا في مـا مضى متساويين

إنّ صدق وعدك بأنك مننا أنت من عندك ونحن من عندنا
والقضية كلها في سوحنا بانسوي شرح يرضي اللاعبين

وعن عمر ناهز 77 عام ًا رحل عنا شاعرنا الشعبي الكبير حمود نعمان في سنة 1997م بعد مشاركته القوية في مسـيرة الغناء الشعبي اللحجي من ناحية ومساهمته الفعالة في الحياة الثقافية بصورة عامة من ناحية أخرى ــ كما قلنا سابقاً ــ . ونأمل من الجهات المعنية بالحياة الثقافية في لحج البحث عن قصائد الشـاعر حمود نعمان ، وتجميعها وإصدارها في ديوان ، ونأمل أن يصل اقتراحنا هذا إلى مسامع المسئولين في لحج وبذلك نكرم رائد من رواد الشعر الغنائي اللحجي .

" ياباهي الجبين "

ونتواصل مـع الفنانين المبدعين الكبـار في لحج الخضيـرة ، لحج الفن والمعنى التي أنبتت الكثير من الشعراء الشعبيين ، المطربين ، والملحنين من تربتها الفنية الخصبة المليئة دائماً بالخير والعطاء والحب ، ومن هؤلاء المغنين الذين كان لهم حضور ٌ قوي وبارز على مسرح الغناء اللحجي وحتى هذه اللحظة الفنان الكبير صاحب الصوت الرخيم محمد صالح حمدون الذي أشـجانا بأغانيه الجميلة والتي مازالت متلألئة ومتألقة إلى يومنا هذا على سـبيل المثال أغنية سـألت العين ، يا باهي الجبين ، يا ربيب الحب ليه هذا الجميـل ، لما متى يبعد وهو مني قريب ، ومن أغانية الوطنية التي كان لها وقع كبير ، وأثر عظيم على نفوس الشباب المتحمس للثورة في إبان الكفاح المسلح أغنية يا شاكي السلاح بل أن تلك الأغنية الحماسية الوطنية رددتها مختلف شرائح المجتمع في جنوب اليمن حينذاك . ولقد بدأ مشواره الفني في سنة 1957م ، وهو في التاسعة من العمر ، والتقى بالشاعر الكبير عبد اللّه هادي سُـبيت الذي أعجب بصوته ، فقدم له بعض من مقاطع أغنية سألت العين ومنذ تلك الفترة التاريخية من عمره خطا خطوات واسعة في ميدان الغناء والألحان ، وتوالت أغانيه البديعة التي ذكرناها قبل قليل . والحق يقال أن الفنان الكبير محمد صالح حمدون صاحب صوت متميز ، وإحساس متدفق يعشـق الغناء ، لا يتكلف في الأداء ، تلقائية مدهشة في الغناء ، ويعد فنانا الكبير محمد صالح حمدون هامة عالية في سماء الفن اليمني .

إبراهيم راسم

ومن الشـخصيات الهامة التي لها أيد بيضاء على الحركة الفنية في لحج الخضيرة هو إبراهيم راسـم . وتذكر المصادر التراثية اللحجية أنه ولد في مدينة أزمير بتركيا سنة 1898م . وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى بين السلطنة العثمانية وألمانيا من جهة وإنجلترا وفرنسا من جهة أخرى . زحفت القوات العثمانية المرابطة في اليمن في سنة 1915م بقيادة القائد العثماني علي سعيد باشا الذي سيطر على مدينة الحوطة . على أية حال ، فقد استمرت الحرب بين القوات العثمانية المرابطة في لحج والقوات الإنجليزية في عدن أربع سـنوات . وبعد هزيمة السـلطنة العثمانية وانتصـار الحلفاء (إنجلترا وفرنسا) عليها . انسـحب العثمانيين من لحج , ولقد فضل بعض الضباط والجنود العثمانيين البقاء في لحج والدخول في خدمة سلاطين العبادل بل أن الكثيـر منهم صاهروا أهلها ، وصاروا جزءا لا يتجزأ من نسـيج المجتمع اللحجي . ويبدو أن هذا ما دفع وشجع إبراهيم راسم على العمل في الفرقة الفنية الموسيقية الخاصة بالسلطان عبد الكريم فضل بن علي (الثاني) (1918ـ 1947م) الذي حكم السلطنة اللحجية 29 عام ًا .

في النهضة الفنية

وكيفما كان الأمر ، فإن المصادر التراثية تذكر أن إبراهيم راسـم " علم موسيقي وأستاذ تربوي ، وصاحب فضل كبير في النهضة الصحفية لعدن ، ارتبط برباط المودة والإخاء بالأمير أحمد فضل القمندان ، والشاعر صالح مهدي حين احتضنته الحوطة مدرسـاً للموسـيقى للفرقة السلطانية إبان سلطنة عبد الكريم " الذي ذكرناه قبل قليل . فكل تلك المؤهلات الثقافية والفنية التي لديه أهلته أن يكون له دور كبير وفعال في تأسـيس النهضة الفنية في لحج ــ كما ذكرت المصادر التراثية ــ . ويبدو أن إبراهيم راسـم قدم إلى لحج من تركيا بعد أن سـمع عنها وعن سلاطينها الذين يشجعون الحياة الثقافية والفنية من ناحيـة وأن مدينة عدن تموج بالحركة الثقافية المتمثلة بصحفهـا المختلفة والمتنوعة من ناحية أخـرى . وتورد المصادر التراثية رحلة إبراهيم راسم إلى لحج واستقراره فيها ، فتقول : " ولد إبراهيم راسـم في مدينة (أزمير) السـاحلية بتركيا عام 1898م لأبوين تركيين ، وكان أبوه ضابطاً في الجيش ، فتعلم في مدارسها اللغة التركية ، والعربية ، والحساب ، والجبر ، وفن الخط ثم التحق بفرقة أبناء الضباط الموسيقية ودرس علوم الموسـيقى ثم خرج إلى اليمن ونزل فـي الحديدة , ومنها مر إلى تعز ثم لحج واسـتقر في الحوطة حوالي 26ـــ 1927م إبان حكم عبد الكريم فضل حيث التحق بالفرقة الموسـيقية السلطانية ليدرس أفرادها الموسيقى " .

في غناء لحج الجديد

ويفهم من ذلك أن إبراهيم راسم وضع اللبنة الموسيقية الأولى الصحيحة العلمية في لحج حيث درس النوتة الموسيقية التي لم تكن معروفة بصورة واسعة بين أصحاب اللحن والطرب . ومن إنجازاته القيمة هو أنه قام بجمع وإعداد قصائد القمندان الشعرية المختلفة وأصدرها في كتاب بعنوان ((ديوان الأغاني اللحجية)) في سنة 1938م . هذا وقد طبع هذا الكتاب في حياة الأمير أحمد فضل القمندان . وأما الإصدار الثاني لقصائد القومندان الذي أصدره إبراهيم راسم ، بعد رحيل القومندان . فقد حمل عنوان((المصدر المفيد في غناء لحج الجديد)) . وفيه يقول إبراهيم راسم : " وكم أتمنى أن يساعدني الحظ فيهيئا (فيهيئ) لي فرصة أن أسجل فيها الأغاني القمندانية بالعلامات الموسيقية النوتة ليسهل تناولها وليمتع من حرم منها " .

يا محلىَ ذا الجميل محلىَ

ولقد كتب صاحب صحيفة " النهضة " ورئيس تحريرها عبد الرحمن جرجرة عن عشق إبراهيم راسم لحوطة القمندان ــ على حسب تعبيره ــ ، فيقول : " لقد تعلق قلب الأستاذ إبراهيم راسم بحوطة القمندان ، وبلغ ذلك أن اقترن بإحدى بناتها وهي شقيقة زوجة الشاعر حسين عبد الباري الذي شكل ثنائياً جميلاً مع الأستاذ حسن عطا وغنى له (منقب صدفة لاقيته)وأيضاً (يا محلىَ ذا الجميل محلىَ) وغيرها من الروائع الغنائية " .

الهوامش :

العلامة المؤرخ القاضي محمد بن محمد الحجري اليماني ؛ مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، المجلد الثاني (الجزء الثالث) ، تحقيق ، وتصحيح ، ومراجعة القاضي إسـماعيل بن علي الأكوع ، الطبعة الأولى 1404 هـ / 1918 م ، منشورات وزارة الإعلام والثقافة .

أحمـد فضل العبدلي ؛ هدية الزمن في أخبـار ملوك لحج وعدن ، حققه وضبط نصه ، وعلق عليه أبو حسان خالد أبا زيد الأذرعي ، الطبعة الأولى 1425 هـ / 2004م ،الناشر : مكتبة الجيل الجديد ، اليمن ــ صنعاء ــ .

هانـز هولفريتز ؛ اليمن من الباب الخلفي ، تعريب خيري حماد ، الطبعة الثالثـة 1985م ، المكتبـة اليمنية للنشـر والتوزيـع . الجمهورية العربية اليمنية.

خالد صوري ؛ الفنان الرائد خليل محمد خليل ، سنة الطبعة 2003م ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر . عدن ، الجمهورية اليمنية .

حسـين سـالم باصديق ؛ في التراث الشـعبي اليمنـي ، الطبعة الأولى 1414 هـ / 1993م . إعداد وتوثيق مركز الدراسـات والبحـوث اليمني ــ صنعاء ــ .

محمد زكريا

دبي مدينة لا تعرف الدموع

مدينة شـعارها العمل ورداؤها النظام في كل شـيء ، أنها مدينة دبي التي تأخذ العيون أخذاً، وتسـحر الألباب بأبراجها العالية وهندست مبانيها الرائعة . وهذا برج ((خليفة)) الذي يعد من أطول وأفخم الأبراج والذي يعد من العجائب السبع في العالم الذي يلامس وجه السماء والذي يحتوي على 75 مصعداً ، و 10 سلالم كهربائية متحركة وتحيطه حديقة غناء وتنبثق منها نوفير تتراقص مياهها بدلال يمنة ويسرة .

دبي وقصور الخلفاء العباسيين

ومنـذ أنّ وطئت قدمـاي مطار دبي الدولي الذي فيه كل شـيء يبـرق ويلمع ومنظـم ، كنت أرى على مدى البصر خضرة لا تنتهي وأنا فـي طريقي إلـى المدينة . ولقد قفز إلى ذهني عبارة قرأتها عن القصور البديعـة التي تفنن فيها الخلفـاء العباسـيون عندما كانت في أوج قمتهـا وصفها أحد المؤرخيـن القدامـى ، قائلا : بأنّ الناس تبني قصورهم في الدنيا ولكـن الخلفـاء بنـوا الدنيـا في قصورهـم أي أنهم جلبـوا الدنيا بكل متاعها إلـى داخل قصورها وهـذا دليل على مـدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ازدهار واسع وعريض . ومدينة دبي على غرار قصور خلفاء بني العباس ، فالدنيـا بنيـت فيهـا . والحقيقة أنّ مدينـة دبـي أو بعبـارة أخرى العامليـن فيها أشـبه بخلية نحل لا يهدؤون ولا يسـتكينون ، ومنذ بزوغ خيوط أنوار الفجر ، تجدهم يشمرون سـواعدهم فيتوجهون إلى أعمالهم ، فالبعض يتجه إلى مكتبه أو محل عملـه في مدينة دبـي والآخـر منهـم ينطلق من المدينة إلى مدينة العين أو رأس الخيمـة أو أبوظبي ، فدبي تعتبر منصة انطـلاق للحركة التجارية فـي الإمـارات بصـورة عامـة . ولفـت نظري عند صـلاة الفجر ، كنت أشـاهد عدد مـن المصلين يرتـدون البدل ، وعلى سـماهم الوقار ، والأبهة ، وبمجرد الانتهاء من الصلاة سـرعان مـا يركبون سيارتهم الفخمة على أخر طراز ، وقد كتبت عليهـا العين أو رأس الخيمـة أو أبوظبـي . وهنا أيضاً إمارة الشارقة ، وعجمان تموجان بالحيوية التجارية ولكن ليسـت على مسـتوى مدينة دبـي التي تحتل الصدارة الأولى في النشاط الاقتصادي فـي الإمارات العربية المتحدة .

منطقة الجُميرا

والواقع أنّ مدينـة دبي مدينة تتلألأ بالجمال والرواء ــ كما قلنا سابقاً ــ وأجمل مناطقها ــ وإنّ كانت كل مناطقها جميلة ــ هى منطقـة ((الجميـرا)) ــ بضـم الجيـم وسـكون الميم ــ الذي تحتـوي علـى مباني مـن دور أو دورين على الأكثر (الفلل) وفيها تفنن أصحابها في بنائها بصورة غاية في الجمـال والذي يزيد في جمالهـا بأنهـا تضم فـي داخلها حدائـق بديعـة تشـرح النفوس وتريح العين من مناظرها الخلابة ، وترى العصافيـر وهى أكبر من العصافيـر الـذي نشـاهدها في اليمن ، تقفز من غصون الأشجار ، وتترامى إلى أسـماعك زقزقتها كأنها تغني أغنية جمـال الروح ، فتدغدغ الأحاسـيس وتهـز أوتار القلـوب . والبيئة الذي في حولك في منطقـة الجميرا بيئة نظيفة خالية من عوادم السـيارات أو أي شـيء يعكـر صفوهـا أو يخدش وجهها النضير .

الحفاظ على هويتها

والحقيقـة أنّ مدينـة دبي لها وجه آخر غير وجه حركتها التجارية ونشاطها الاقتصادي الذي لا يهدأ وهو تراثهـا وتاريخها ، فالمدينة يتجلى فيها تاريخ مليء بالأحداث الجسيمة . في أواخر القرن التاسع عشـر الميلادي لعبت دور ًا كبير ًا على مسـرح التاريـخ ، فقد وقف حكامها في وجه سياسـة إنجلترا ــ التي كانـت سـيادة البحار في البحار دون منازع ــ التي حاولت تكـرار ًا ومـرار ًا بـأنّ تسـلبهم حقوقهم الشـرعية في حكمها أو بعبارة أخرى أنّ تجعلهم يدورون في فلكها. ويذكر التاريخ انه تم التوقيع على عدد من الاتفاقيات والمعاهدات بين أمرائها وإنجلترا في أواخر القـرن (19 م) . ولكن هـذا لـم يسـلبهم حكمهـم ، ويطمس هويتم الخليجية العربية الأصيلـة. ولاحظت أنّ الكثير من الصور المعلقة في جدران مكاتب الشـركات أو المحلات تظهر فيها صـورة قديمة عـن مدينـة دبي ، كمبانيهـا ذات الطـراز العتيـق من قـلاع ، وحصون ، وأسـواقها المشـهور التـي كانت تقـام كل أسبوع أو شهر أو سنة والذي كان يتقاطـر عليها الكثير مـن التجار المحلييـن مـن مختلـف مناطق الخليـج العربـي . والجميل هناك بـأنّ المسـئولين علـى الحيـاة الثقافيـة حريصيـن كل الحرص علـى الحفـاظ على شـخصيتها التراثيـة والتاريخيـة الضاربة جذورهـا فـي أعمـاق التربـة الخليجية العربية .

احتوت المدينة على أكثر من مائتي جنسـية أبرزها الجالية الهندية ، والباكستانية وغيرهما من شـرق آسـيا . وكيفما كان الأمـر ، فعندما تنظر إلى أبراج دبي الصماء التي تخترق هامتها السـحب ، ومبانيهـا الضخمـة التي تلقي في روعك الرهبة ، والجاليـات الأجنبية التي تعمل في بياض النهار ، وسواد الليل ، تشـعر أحسـاس عميـق بأنّ دبـي مدينة لا تعـرف الدموع . والواقع عندما تمكث ، وتستقر في تلك المدينـة الرائعة التي تعد نمـوذج لمـدن العالم في